رأي القدس

امريكا ومبادرة المالكي غير السارة

■ بدأت الأوراق تختلط في المنطقة العربية، بشكل غير مسبوق، نتيجة للحرب الحالية الدائرة في لبنان، والانقسامات والاستقطابات العربية والدولية التي افرزتها بشكل ينبئ بحدوث انقلابات عديدة غير متوقعة في المواقف والسياسات. ولعل السيد نوري المالكي رئيس وزراء العراق الذي يقوم حاليا بجولة في امريكا واوروبا، هو اول من بدأ يكتشف المتغيرات الجديدة ودخول المنطقة مراحل مختلفة، عندما لم يستطع الا ان يدين العدوان الاسرائيلي على لبنان وفلسطين دون ان يدرك تبعات مثل هذه الادانة.

فقد تعرض السيد المالكي يوم امس وبسبب هذه الادانة لهجمة شرسة من قبل النواب الديمقراطيين في الكونغرس الامريكي، لانه ادان العدوان الاسرائيلي، ولم يدن عدوان حزب الله على اسرائيل حسب وصفهم.

الديمقراطيون شككوا بقدرة السيد المالكي وحكومته على لعب دور في بناء الشرق الاوسط الجديد ودعم الاستقرار في المنطقة. السيد المالكي الذي احجم وكل من سبقه من رؤساء وزراء العراق الجديد عن ادانة اسرائيل وعدوانها وابداء اي تعاطف مع الشعب الفلسطيني ومقاومته، وجد نفسه وبعد العدوان الاسرائيلي التدميري على لبنان امام امتحان كبير، لان الذين يقتلون ويشردون في لبنان، هم في معظمهم من ابناء مذهبه، ولم يجدوا مناصا غير الوقوف الى جانبهم في مواجهة المجازر الاسرائيلية التي تستهدفهم.

الرئيس الامريكي جورج بوش، الذي ذهب الى العراق خلسة لكي يهنيء السيد المالكي باكمال تشكيله لحكومته، فوجئ بمثل هذا الموقف للسيد المالكي. ومن المؤكد انه سيصاب بخيبة امل كبيرة بأقرب حلفاء واشنطن، ومن رئيس وزراء خسرت الولايات المتحدة حتى الآن ثلاثة الاف جندي امريكي، وثلاثمئة مليار دولار من اجل تكريس دعائم حكمه.

السيد المالكي ربما يتمكن من القاء خطابه امام الكونغرس وفق البرنامج المحدد، بغض النظر عن نداءات النواب الديمقراطيين بمطالبته بالاعتذار كشرط لالقاء هذا الخطاب. ولكنه قد لا يجد الاستقبال الذي كان يتوقعه من برلمان الحليف الاكبر.

امريكا اعتقدت بانها تستطيع سلخ العراق عن محيطه الجغرافي وتخريبه والتفرد به، دون ان تدري ان الجذور المذهبية والجغرافية والدينية في منطقة ملتهبة مثل الشرق الاوسط هي الاقوى والاعمق لان الطبع دائما يغلب التطبع، مثل ما يقول المثل العربي الشهير.

المنطقة تتغير ومن الطبيعي ان يتغير العراق، ولن يكون مفاجئا بالنسبة لنا اذا ما انعكس هذا التغيير بشكل مقاومة جديدة تتحالف مع حزب الله، وتبدأ حربا ضد القوات الامريكية في العراق، الامر الذي سيضع الولايات المتحدة امام كارثة اكبر ربما لم تتوقعها مطلقا.

خارطة جديدة للمنطقة؟!

محمد كريشان

■ خارطة جديدة لمنطقة الشرق الأوسط نشرتها مجلة أمريكية تابعة للقوات الأمريكية تدعو للاستغراب وحتى الذهول : دول جديدة تقوم وأخرى يقتطع من أراضيها وأخرى يضاف إليها، فمن إيران وأفغانستان وباكستان يتم انتزاع منطقة جنوبية تسمى بلوشستان، ومن السعودية يتم انتزاع مساحات تضم لليمن ويتم اعتبار مكة والمدينة دويلة مقدسة منفصلة، دولة للأكراد تأخذ أراضيها من تركيا والعراق وإيران وسورية، يصبح العراق دول ثلاث فإلى جانب الأكراد للسنة دولتهم في الوسط وللشيعة دولتهم أيضا في الجنوب وتقتطع من غرب إيران أراضي لها، تمتد حدود الأردن داخل الأراضي السعودية حتى المدينة المنورة جنوبا مع مساحات إلى الشرق في السعودية، إسرائيل تعود إلى حدود 1967 فيما يبقى وضع الضفة الغربية وغزة غير محسوم أما لبنان فيكبر ويأخذ من سورية جزءها المطل على البحر المتوسط ... وغير ذلك من التفاصيل.

لا أحد بإمكانه الجزم بمدى جدية ومصداقية مثل هذا التوجه الأمريكي لإعادة تشكيل المنطقة بهذا المعنى الواسع والجذري ولكن لا أحد أيضا يمكن أن يستخف باحتمال كهذا، حتى وإن كان بعيد المدى، طالما أن مجلة أمريكية مختصة ورسمية تنشره حتى لو حسبناه على سبيل التحفظ والحذر من باب التخويف أو حتى الخيال السياسي والاستراتيجي. أحد الخبراء لم يستبعد أن تكون خارطة من هذا القبيل موجودة فعلا في أحد أدراج صناع القرار الأمريكي الحاليين لكنه حاول مع ذلك التخفيف من أهميتها على أساس أن مصائر الدول والشعوب لا يجري تقسيمها بسهولة تقسيم قطعة جبنة.

ومثلما كتب الدكتور عزمي بشارة من أن نفي نظرية المؤامرة لا يعني في المطلق عدم وجود مؤامرات أو أن الدول العظمى لا تدرس استراتيجياتها بدقة وتخطيط محكمين، فإنه قد لا يكون من باب الذعر المرضي الانتباه من الآن إلى أشياء من هذا القبيل، حتى وإن كان تسريبا مدروسا، خاصة عندما يكون بعضها متداولا منذ فترة كتقسيم العراق إلى دويلات ثلاث أو قائما أمام ناظرينا كتسويف الفلسطينيين ووعدهم المعلق لهم بدولة ممسوخة من كل مقومات السيادة وغير ذلك، وخاصة أيضا عندما نعرف طبيعة ومعدن غلاة المحافظين الجدد الماسكين بزمام الأمور والمدى الذي يمكن أن يصل إليه تطرفهم أو حتى جنونهم لاسيما عندما نطلع على تصريحات من طينة تلك التي أدلى بها المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة جون بولتون حين يعترف في مقابلة تلفزيونية لقناة «فوكس نيوز» الجمعة الماضية أن بلاده تحاول استثمار العدوان الإسرائيلي على لبنان لتحقيق مصالحها الخاصة باعتبارها، كما قال، فرصة مواتية لدفع سورية وإيران إلى الوراء وإن لم يوضح المضمون النهائي الذي يمكن أن يؤول إليه هذا الدفع إلى الوراء. ويعزز هذا الانطباع، كما يمكن أن يوصف صراحة إلى حد الآن، أن بعض غلاة الصهاينة أيضا مثل رئيس مركز ميمري للأبحاث يغال كرمون لا يترددون في الإعراب في لقاء مع التلفزيون الإسرائيلي عن أن مستقبل المنطقة غير مرتبط بالأحداث الأخيرة في لبنان وأن لب القضية الحالية ليس حزب الله فقد تتمكن إسرائيل، كما قال، من القضاء عليه ولكن صواريخ أخرى قد تسقط عليها، وإنما المشكلة الرئيسية هي روسيا والحلف الروسي ـ الإيراني الذي أقيم، حسب تعبيره، لمواجهة أمريكا وحلفائها في المنطقة.

خارطة مفزعة يجب ألا تدعو إلى الجزع المبالغ فيه ولكن لا ضرر أبدا في الانتباه إليها فكم من مشاريع جنونية بتنا نراها هذه الأيام على شاشات التلفزيون على الهواء مباشرة.

لبنان: جولة أخرى في مسلسل لا يتوقف

فيصل حوراني *

■ هذه الحرب على لبنان أمريكية قبل أن تكون إسرائيلية. ولو تجاوزنا الحضور الطاغي لأداة التنفيذ، فسيصح القول بأن لبنان يتعرض لحرب تريدها الولايات المتحدة قبل سواها، وتلعب إسرائيل فيها دور الشريك الصغير المتمتع بسمات القاتل المأجور والطامع في الظفر بنسبة من الغنائم.

الولايات المتحدة بحاجة لتطويع بلدان الشرق الأوسط. وقد شرعت في عملية التطويع منذ تكشفت ضخامة مخزون النفط وأهميته. فعلت الولايات المتحدة هذا بالتي هي أحسن والتي هي أسوأ، بالتنسيق مع حليفاتها أو من وراء الظهر. واستعانت بالحركة الصهيونية ودولتها إسرائيل في كل وقت، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى يوم الناس هذا. ولتسهيل عملية التطويع، أفلحت الولايات المتحدة في أمور بعينها، فقد جنّدت القوى العربية المحافظة تحت راية العداء للشيوعية ومنّتها بحمايتها من الشيوعية، ووجهت جانباً من سخط النخب العربية نحو الصهيونية وإسرائيل بدل أن يتجه نحوها هي، وأوكلت مهمة محاربة العرب إلى جيش إسرائيل، فتجنبت إقحام جيشها في حروب المنطقة المتواترة وإزهاق أرواح جنودها فيها، واحتفظت لنفسها بهامش للمناورة حين تحتاج إلى الظهور بمظهر الوسيط النزيه.

وقد اشتد تواتر عمليات التطويع منذ أفلحت الولايات المتحدة في تطويع مصر. أما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أي في المرحلة التي نشهد الآن جانباً من عقابيلها، فقد انفتح الباب لاستكمال تطويع الجميع، وصارت الولايات المتحدة قادرة على إتيان أي قبيحة. والواقع أن في معظم بلدان المنطقة الآن أنظمة حكم طيعة أو خائرة ومعارضات مبلبلة أو قاصرة. وليس في المنطقة التي لم تعد الولايات المتحدة بحاجة إلى مجاملة أحد فيها سوى بؤر قليلة مستعصية على التطويع حتى وهي لا تملك القدرة على تبديل الحال.

لبنان فيه واحدة من هذه البؤر. والمقاومة اللبنانية، هذه التي يقودها حزب الله المشهود له بالدراية والصلابة، هي مركز هذه البؤرة، وهي التي تحول دون وضع لبنان كلّه في حظيرة الطائعين، بالرغم من أن فيه قوى كثيرة تتشوق للالتحاق بها. وفي السنوات الأخيرة، كثّفت الولايات المتحدة جهودها لتفكيك البؤرة اللبنانية، ودفعت أتباعها المحليين والإقليميين وحلفاءها الدوليين للمساهمة في هذه الجهود. إلا أن البؤرة المتجذّرة في بيئة اجتماعية ووطنية وسياسية ترفض التطويع لم تتفكك ولم تُظهر رخاوة. وهكذا، صار لا بد من هذه الحرب الجديدة، الكثيفة، ذات المدى المفتوح في الوقت والمكان.

هذه الحرب لها هدف معلن: القضاء على حزب الله وتحويل النظام اللبناني إلى نظام مطيع بالكلية. ولهذه الحرب أهداف أخرى تكاد تكون معلنة: تدمير المقومات المادية لقوة الدولة اللبنانية، وقطع مسيرة الحوار الوطني الذي جمع قوى البلد في مجال البحث عن ما هو مشترك، وزعزعة أسس الديمقراطية اللبنانية التي تبيح التعددية وتصون حرية التعبير، وما إلى ذلك مما يسمح لمطيعي الولايات المتحدة بالتحكم بالبلد وحدهم. أما الأهداف غير المعلنة فيمكن الذهاب إلى حدود بعيدة في التكهن بها: زعزعة أحد مرتكزات الموقفين الإيراني والسوري إزاء الولايات المتحدة وأداتها الفتاكة إسرائيل، وتحرير إسرائيل من تهديد المقاومة اللبنانية لاستقرارها، وذلك لكي يتمتع الشريك الصغير بالقدرة على تعويض ما يفقده الشريك الكبير بسبب ورطته الدامية في العراق وورطته السخيفة في أفغانستان. وقد لا نقع في المبالغة إن أدرجنا بين أهداف هذه الحرب حاجة الشريكين لإجراء تدريب ميداني من أجل اختبار الأساليب والوسائل التي يجري إعدادها فيما لو اقتضت التطورات شنّ حرب على أيٍّ من إيران أو سورية أو عليهما كليهما.

وفي هذا التصور للأهداف نقع على التفسير الصائب لهول الهجمات العسكرية على لبنان ولسفور التأييد الأمريكي للقتل والتدمير وجرائم الحرب التي تُقترف في كل لحظة. وهذا هو جوهر الأمر كما ينبغي أن يُرى حين تكون الرؤية صائبة. أما التفاصيل فإنها تتوالى لتؤكد هذا الجوهر. ولن يخطئ الرؤية إلا الذين يتوهمون أن هيمنة الولايات المتحدة على الجميع قدر لا بد منه. وهؤلاء هم الذين يتوهمون أن الرضوخ للولايات المتحدة هو طريق النجاة الوحيد المتيسر من الأهوال التي تستطيع هذه الولايات المتحدة أن تصبها على أي معاند لمشيئتها.

والعرب في هذه الحرب ليسوا عرباً واحدة كما كانوا في الحروب الأولى، وليسوا عربين فقط كما صاروا في حروب لاحقة، بل هم عربان عديدة، وأظهرُ العربانِ حضوراً في الساحة الآن هم عربان أمريكا، الموالون لها، والحائرون أمامها، والطامعون في الظفر برضاها. وهؤلاء جميعهم ليسوا مجموعات شياطين خرساء أو ساكتة كما يصورهم بعض الإعلام، بل صاخبة وناشطة ومعنية بأن تدعم الجهد الأمريكي لجلب لبنان كله إلى الحظيرة. ومما لا شك فيه أن هؤلاء يتمنون أن تشرق الشمس ذات صباح دون أن يكون على ظهر البسيطة من يقول للولايات المتحدة: لا.

وما أشدّ شبَهَ الحرب على لبنان بالحرب على العراق: المعتدي هو ذاته، والدوافع تكاد تكون متطابقة، وتصيّد الذرائع لشن الحرب على بلد باسم محاربة الإرهاب، واستهداف تدمير البلد لأن ظروفه تؤهّله لاستنكار الوجه المتوحش للسياسة الأمريكية، العراق الذي أهلته لهذا الدور قدراته البشرية وموارده المالية، ولبنان المؤهل بقوة تقدّمه ورسوخ التقاليد الديمقراطية فيه. بل ما أشدّ تشابه الحالتين من حيث مراهنة الولايات المتحدة فيهما على قوى تنتسب للبلد المستهدف وتقدم ظهورها مطايا للأمريكيين وشركائهم كي يفتكوا به. إنها، هنا كما هناك، القوى التي تتوهم أن انتصار الولايات المتحدة سيمكنها هي من الانتصار على خصومها من أهل بلدها.

فهل ستنجح الولايات المتحدة وقاتلها المأجور أو شريكها الصغير والمراهنون عليهما في تحقيق أهداف هذه الحرب؟

الإجابة تقتضي تحديد معنى النجاح في حرب كهذه في الظرف الذي دفع إلى شنّها. فنجاح الظالم يتحقق إن أفلح في إخلاء الساحة من الذين يقاومون ظلمه، أو حال بينهم وبين الاحتياز على الوسائل التي تمكنهم من المقاومة. فإذا بقي في الساحة من يملك القدرة على المقاومة فكل نجاح أقل من هذا مثلوم. وفي لبنان، كما في أي مكان يتصارع فيه ظالم ومظلوم، يفشل المعتدي إذا لم يدمّر القدرة على المقاومة، وينجح المقاوم إذا تمكن من البقاء. ولو قسنا النجاح بمعيار استهداف تدمير بنى لبنان التحتية وإرهاق الشعب ودولته بالويلات، فقد ينبغي الإقرار بأن نسبة كبيرة من هذا الهدف قد تحققت حتى الآن، وربما ارتفعت هذه النسبة في الأيام القادمة، علماً أن هذا الكلام يكتب في اليوم الثالث عشر للحرب.

أما إذا ربطنا تدمير البنية التحتية بهدف تركيع لبنان كلّه، أي بهدف المعتدين السياسي، فقد يختلف الأمر، بل إنه سيختلف بالقطع. ولا بدّ من أن نستحضر عبَر الحروب السابقة، تلك التي استغرقت زمناً أطول، وصبّت على لبنان أهوالاً أشد، وأحدثت دماراً أوسع، ومكّنت قوى ذات وزن فيه من الجهر بتعاونها مع المعتدي، ثم لم تُفضِ إلى تركيع البلد كلّه، ولم تُلغ وجود المقاومة وتطورها. ألم ينجز لبنان بسرعة قياسية إعادة بناء ما دُمّر في كل مرة، ألم يستنبط من الكوارث حوافز لتجديد الدم وتنشيط الحيوية واستئناف المقاومة بمستويات أرقى من السابقة.

ثم لو قسنا النجاح بمعيار شعبية حزب الله في لبنان وثبات أو تراخي الحضور المتحقق له في البلد والعلاقات التي نسجها مع معظم القوى فيه، فقد أفضت الحرب حتى يومها الثالث عشر إلى عكس ما توخاه المعتدون. والوجه المتوحش للسياسة الأمريكية، العراق الذي أهلته ليحرروها من ضغوط حزب الله عليها وجدت نفسها فيما البطش الأمريكي الإسرائيلي يفتك بالبلد كله في الموقع ذاته الذي يقف فيه حزب الله، موقع الدفاع عن وطن الجميع ومنجزاته الروحية والمادية. وها هو ذا رئيس الحكومة فؤاد السنيورة يقول ما كان من الممكن أن يقوله رئيس حزب الله حسن نصر الله ذاته. وإذا كان أقرب رؤساء حكومات لبنان إلى الولايات المتحدة قد وصف العدوان الإسرائيلي بأنه وحشي، واستنكر تأييد الولايات المتحدة لاستمراره، فكيف يمكن الادعاء بأن العدوان قد أسلم حزب الله إلى العزلة.

ومحاولة تأليب العرب على حزب الله بدعوى أنه جلاّب مصائب لبلده و«مبوظ» أفراح، هذه المحاولة الخبيثة، ما الذي نجم منها. ألم يُضطر أكثر الحكام العرب تبعية للولايات المتحدة إلى استنكار الوحشية الإسرائيلية وحثّ الإدارة الأمريكية علناً على التدخل لوقف العدوان؟ ألم ينته إلى هذا حتى الحكام الذين وجهوا في بداية الحرب اللوم إلى حزب الله. نفاق؟ أليس لاضطرار هؤلاء إلى النفاق دلالة سافرة؟ وهل كانوا سيقولون ما انتهوا إلى قوله لولا أن تعاطف جماهير بلادهم مع لبنان المعتدى عليه ومع حزب الله الذي يقاوم العدوان قد بلغ حداً يقلق هؤلاء الحكام؟

وإذا قسنا الأمر بمعيار ما يتعرض له الحزب ذاته من خسائر في المقاتلين والأعتدة، فلا مناص من الإقرار بأن الحزب قد خسر بعض مخزون أسلحته وقد يخسر المزيد في الأيام المقبلة. إلا أن الخسائر في المقاتلين المتمرسين لن تبلغ أي رقم يأذن للمعتدين بأن يدعوا أنهم حققوا هدفهم. وبالإمكان أن نستحضر من حقائق حرب 1982 حقيقة لم تُرَ في حينها على نطاق واسع. ففي شهور هذه الحرب الثلاثة، لم تتجاوز خسائر المنظمات الفلسطينية جميعها من كادرها المحترف المائة. ويعرف الذين لديهم إلمام بمقتل المقاومين أن هؤلاء يتقنون تجنب وقوع خسائر في صفوفهم. وإذا كانت آلة البطش الفتاكة في الحرب الحالية قد جعلت نسبة خسائر اللبنانيين في أرواح المدنيين إلى خسائر الإسرائيليين عشرة إلى واحد، فمما لا شك فيه أن الفارق أضأل من هذا بكثير إذا حسبت الخسائر في أرواح المقاتلين على الجانبين وحدها.

وفي اليوم الثالث عشر للحرب، لم يبدُ أن إسرائيل قد أخرجت حزب الله من أي ميدان. ولا يلوح في الأفق أن شراسة غارات إسرائيل الجوية وقصفها المدفعي سوف تقضي على حزب الله.

من هنا، تتحرق إسرائيل للقيام باكتساح بريّ، وتتصور أن هذا الاكتساح هو الذي سيحقق أهداف الحرب. غير أن مثل هذا الاكتساح يعني أن تعود إسرائيل إلى احتلال لبنان كما فعلت في العام 1982. وبالرغم من أن إسرائيل تقول إنها ستكتسح مناطق محدودة وتبقى فيها لوقت قصير فقط، فإن تداعيات الاكتساح وما يستنهضه من مقاومة قتالية وسياسية قد توجب على إسرائيل أن تحتل ما احتلته هي ذاتها في العام 1982 أو ما هو أوسع منه وتطيل المكوث فيه.

وهذا يعني أن تكرر الولايات المتحدة في لبنان على يد إسرائيل ما فعلته هي ذاتها في العراق، فتتسع ورطتها العراقية، وتمتد ساحة المقاومة الساخنة من البصرة حتى غزة مروراً بجبال لبنان ووهاده ووديانه وسهوله. كما يعني هذا أن يسقط من الادعاءات الأمريكية الادعاءُ بأن هذه حرب على الإرهاب، لتتجدد دون التباس ثنائية احتلال ـ مقاومة، وتتسع جبهة الاحتجاج السياسي ضد الولايات المتحدة في كل مكان في العالم.

ولا بد من أن تكون الإدارة الأمريكية أغبى مما هو شائع عنها إن أباحت توسيع الساحة في هذا النحو وتعريض تابعيها في بلاد المنطقة إلى ما تعرض له تابعوها في العراق، هؤلاء الذين لا يستطيع حتى رئيس حكومتهم أن ينتقل من منزله إلى مكتب عمله ما لم يحمه الأمريكيون. فهل تبيح الولايات المتحدة أن تتطور الأمور في المنطقة في اتجاه توسيع مناقع الدم واللهب؟ هل ستجازف بأن يسقط ادعاؤها بأنها تشن الحرب ضد جماعات إرهابية معزولة وليس ضد شعوب ودول؟ هل يناسب الولايات المتحدة أن يشهد العالم الذي يتزايد اعتراضه على سياستها أن الذين يقاومونها في الشرق الأوسط هم طلاب حرية مكافحون ضد احتلال؟ المنطق السديد يحمل على القول بأن الولايات المتحدة لن تسهم بنفسها في توسيع ورطتها، ولن تحرق بيديها ما تتصور هي أنه رصيد لها حققته في دنيا العرب أو دنيا المسلمين. لكن، هل بإمكان أحد أن يركن حقاً إلى أن إدارة جورج بوش ستسلك في هدى منطق سديد.

والحاصل أن الحرب على المقاومة تظل، كما كانت منذ ابتدائها في أواخر ستينيات القرن المنصرم، سجالاً. قد يضعف في جولة من جولات هذه الحرب طرفٌ بعض الضعف ويقوى آخرُ بعض القوة. وقد يضطر هذا أو يقع ما هو عكسه في جولة أخرى. لكن، ما من طرف يقادر على أن يحسم الأمر لمصلحته. ومع اضطراد هذا السجال، تغيض فرص الاستقرار، وتنطفئ وعود السلام بأسرع مما تنطفئ البروق، وتنسدّ آفاق التسويات المتوازنة.

ووقائع الأيام الثلاثة عشر الأولى في الحرب الأخيرة لم تقدم ما يقنع بأن هذا السجال سيتوقف. وها نحن نشهد ميداناً آخر من ميادين الشرق الأوسط تتصارع فيه أطراف عديدة دون أن نكون على يقين من أن أياً منها سيظفر بما يريد.

* كاتب من فلسطين

يُنشر ايضا في شهرية **الطريق**، رام الله، العدد 37

خمسون عاما على السويس: ما أشبه الليلة بالبارحة

د. سعيد الشهابي *

■ تحل قريبا الذكرى الخمسون للعدوان الثلاثي على مصر فيما يستمر العدوان الاسرائيلي على لبنان وفلسطين بدعم أمريكي غير محدود. ونظرا لتشابه المسرح العسكري والسياسي برغم تباعد الحدثين نصف قرن، ثمة سؤال حول الذهنية التي تحرك الساسة للاقدام على قرار الحرب: أهو ضعف القدرة على استقراء تبعات الحرب بشكل دقيق؟ ام الشعور المفرط بالقوة والاعتداد بالنفس والاعتقاد بعدم قدرة الطرف المستهدف على الرد والمقاومة؟ فعندما قررت فرنسا وبريطانيا شن العدوان على مصر في 1956 كانتا تعتقدان انهما قادرتان على تنفيذ اهدافهما، ولم يراود ساسة البلدين أدنى شك في حتمية انتصارهما، وذلك لما تمتلكانه من قوة عسكرية عملاقة ونفوذ سياسي واسع على الصعيد الدولي. ولكن الخطة فشلت فشلا ذريعا، وكان لها عواقب تفوق كل التوقعات. فأولا أجبرت النتائج الكارثية للعدوان رئيس الوزراء البريطاني، آنذاك، أنتوني إيدن، على الاستقالة، بل انتهت حياته السياسية تماما برغم ما كان يمتلكه من تجربة سياسية متميزة. ثانيا ان تلك النتائج تجاوزت الفشل العسكري وأدت الى تداعي الامبراطورية البريطانية تدريجيا، فلم تكد تمر خمسة عشر عاما، حتى انتهى عهدها بالانسحاب النهائي من جميع المناطق الواقعة شرقي السويس.. ثالثا: أنها أدت الى اعادة صياغة التوازن الدولي بشكل اساسي، فدخلت الولايات المتحدة الى المسرح العالمي بشكل أقوى، وتصاعدت بذلك الحرب الباردة بين الشرق والغرب. الملاحظ ان الجدل حول أزمة السويس ما يزال ساخنا، والآراء متعددة في اوساط الساسة الغربيين الذين عاصروها. وفي مقاله يوم الاثنين الماضي، كتب السيد ويليام ريس موج، الذي كان أحد مستشاري رئيس الوزراء البريطاني في تلك الفترة، مقالا في صحيفة «التايمز» يؤكد أمرين اثنين: اولهما انها كانت المسمار الأخير في نعش الامبراطورية البريطانية «لو كان علي ان أختار يوم انتهاء الامبراطورية لربما قلت: 26 يوليو 1956، اليوم الذي أمم فيه الرئيس المصري ناصر قناة السويس». واعتبر الكاتب ان الموقف الامريكي كان خطأ استراتيجيا أدى ليس إلى إضعاف بريطانيا فحسب، بل أدى الى نتائج كارثية للغرب بما فيه الولايات المتحدة الامريكية: «عندما سئل الرئيس الامريكي أيزنهاور في آخر حياته عن أكبر خطأ ارتكبه خلال رئاسته، أجاب: السويس».

أزمة السويس بدأت في إثر قرار الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، في 26 يوليو 1956، تأميم قناة السويس التي أنشئت في 1869 بأموال من الشركات الفرنسية والمصرية. وبعد ست سنوات على افتتاحها، اشترت بريطانيا أسهم الحكومة المصرية في «شركة قناة السويس» التي كانت تديرها، وتقاسمت مع فرنسا ادارتها. وفي 1882 هيمنت بريطانيا بشكل كامل على ادارة القناة، حتى قرار التأميم في 1956. قرار التأميم هذا دفع الحكومتين البريطانية والفرنسية للتفكير في كيفية الحفاظ على مصالحهما في القناة، بينما كانت «اسرائيل» تتطلع لاستعمال القناة في نقلها البحري. وفي الفترة ما بين التأميم وشن العدوان الثلاثي ضد مصر عقدت اجتماعات عديدة بين المسؤولين من الدول الثلاث، اهمها الاجتماع السري الذي عقد بمدينة سفراس الفرنسية، للاتفاق على العدوان المشترك. واعتمدت الخطة على دفع القوات الاسرائيلية لاحتلال القناة، ومن ثم تتدخل بريطانيا وفرنسا وتطالبان القوات المصرية والاسرائيلية بالابتعاد عن القناة مسافة عشرة اميال من كل طرف، ثم تشكيل قوة مشتركة بريطانية – فرنسية لحفظ السلام فيها، ومن ثم الاستمرار في السيطرة عليها. بريطانيا، بشكل خاص، كانت ترى التدخل العسكري ضروريا بعد ان دعمت مصر حرب استنزاف ضد «اسرائيل» ودعمت مجموعات «الفدائيين» على الجبهتين المصرية والاردنية. أما غزة فقد تحولت الى ملاذ للاجئين الفلسطينيين، ومنطلقا للاعمال الفدائية ضد قوات الاحتلال. وفي الفترة 1953 ـ 1965 قامت قوات الدفاع الاسرائيلية بشن اعتداءات عديدة على غزة، آخرها في شباط (فبراير) 1955، فردت مصر بدعم عمليات فدائية اكبر ضد قوات الاحتلال، وتواصل التوتر في 1956 حيث استمرت هجمات الفدائيين والاعتداءات الاسرائيلية الانتقامية، حتى جاء قرار تأميم القناة في 26 تموز (يوليو) الذي أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر. كان من بين أهداف التأميم توفير أموال لمشروع السد العالي في أسوان الذي كان مشروعا ضخما يتطلب استثمارات هائلة لم تتوفر لدى الحكومة المصرية. وكانت بريطانيا قد وعدت بتمويل مشروع السد العالي، ولكنها تراجعت عن ذلك بعد ان اشترت مصر دبابات من تشيكوسلوفاكيا، واعترفت بجمهورية الصين الشعبية. كان ذلك الاعتراف نتيجة مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في 1955 بمدينة باندونغ بأندونيسيا.

تم تنفيذ الخطة المتفق عليها، اذ اجتاحت «اسرائيل» قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء، وتقدمت باتجاه منطقة القناة. ووفقا لتلك الخطة، عرضت كل من بريطانيا وفرنسا القيام باحتلال المنطقة للفصل بين الجيشين المتحاربين، ولكن الرئيس عبد الناصر رفض العرض الغربي، الامر الذي وفر للدولتين الاوروبيتين ذريعة للتدخل المباشر، على أمل اسقاط نظام عبد الناصر. كان العدوان «ناجحا» من الناحية العسكرية ولكنه كارثة سياسية غير مسبوقة. فالولايات المتحدة كانت قد وقفت بقوة ضد الاجتياح السوفييتي للمجر، فكيف تبرر الصمت على العدوان الثلاثي؟ ولذلك دعت فورا لوقف اطلاق النار، وهددت بريطانيا ببيع أرصدتها من الجنيه الاسترليني، الامر الذي كان سيؤدي الى سقوط العملة البريطانية. كما كان لموقف مجموعة الكومنولث دوره في الضغط على بريطانيا التي كانت تحرص على عدم خسارتها لانها ترى فيها بقية الامبراطورية البائدة. وفي محاولة لتخفيف الأزمة عرض ليستر بيرسون، نائب رئيس الوزراء الكندي على الامم المتحدة تشكيل قوة تابعة للامم المتحدة بهدف «حفظ السلام على الحدود واتاحة فرصة للاتفاق على تسوية الوضع». ثم جاء الموقف الامريكي الذي دعا لوقف اطلاق النار وانتهى بانسحاب القوات المعتدية من القناة، واستقالة رئيس الوزراء البريطاني بشكل درامي منقطع النظير.

خمسون عاما على العدوان الثلاثي ضد مصر، والصورة ما تزال تترنح امام الناظرين، فكأن الزمن وقف بلا حراك. بعض دوافع ذلك العدوان هي نفسها التي يكررها العدو الصهيوني اليوم، ويرددها معه مسؤولو البيت الابيض وبعض الزعماء الاوروبيين. لقد كان نشاط «الفدائيين» من بين أهم العدوان الثلاثي (بالاضافة الى تأميم قناة السويس)، وكانت مصر عبد الناصر وراء ذلك النشاط. الاسرائيليون شعروا بان العمل الفدائي كان استنزافا لهم، ماديا وبشريا، فاذا سمحوا باستمراره فسوف يستمر ويحاصرهم مستقبلا. فكان العدوان الثلاثي خطوة على طريق محاصرة ذلك الخطر. ووقف البريطانيون والفرنسيون الى جانب الصهاينة الذين لم تمض سوى أقل من ثمانية اعوام على ارتكابهم أكبر عمل ارهابي ضد القوات البريطانية عندما فجروا فندق الملك داود الذي كان مقر الحكم البريطانيين، وقتلوا 92 من نزلائه، ودفعوا بذلك البريطانيين للانسحاب من فلسطين. وتجدر الاشارة الى ان البريطانيين عبروا الاسبوع الماضي عن استيائهم للاحتفال الذي نظمه اليمينيون ومن بينهم بنيامين نتنياهو بالمناسبة. وكتب السفير البريطاني لدى الكيان الصهيوني، سايمون ماكدونالد والقنصل العام البريطاني في القدس، جون جينكينز، رسالة الى البلدية قالا فيها: «اننا لا نعتقد ان من المناسب الاحتفاء بعمل ارهابي ادى الى فقدان عدد ارواح كثيرة». استهدفت مصر لانها كانت تدعم العمل الفدائي، وشن العدوان الثلاثي لتلقن مصر عبد الناصر درسا لا تنساه، ولكن التاريخ يقول ان ذلك العدوان لم يحقق اهدافه، بل ان تضارب المصالح والمواقف ادى في النهاية الى انتهاء العدوان، وعودة قناة السويس الى اهلها.

اليوم، تطرح الاسباب نفسها لتبرير العدوان الاسرائيلي ضد لبنان وفلسطين. فهناك «ارهابيون» يهددون الامن الاسرائيلي، ولا بد من تصفية الحساب معهم، حتى لو تطلب ذلك استهداف المدنيين وتدمير البنى التحتية للبنان. وكما كانت مصر متهمة بدعم العمل الفدائي، فان ذلك الاتهام يوجه اليوم الى كل من سورية وايران، وذلك لتبرير اي عدوان مستقبلي على اي منهما او كليهما. فمقولة اجتثاث مصادر تهديد الامن الاسرائيلي جديدة ـ قديمة، والارهاب الاسرائيلي موغل في القدم ايضا. فما يشاهده العالم اليوم من مشاهد مروعة على مدار الساعة يمثل نمطا من الممارسات الاسرائيلية الارهابية منذ قيام كيان الاحتلال، بما في ذلك تمزيق اجساد الاطفال والنساء وتدمير الشوارع والجسور والمطارات والعمارات والاسواق، كل ذلك يحدث امام مرأى العالم ومسمعه. انه لا يحدث بقرار اسرائيلي فحسب، بل ان الولايات المتحدة الامريكية اصبحت أكثر حماسا للحرب والعدوان من «اسرائيل». فواشنطن، هي الاخرى، تسعى للقضاء على الارهاب، على حد زعمها. المشكلة ان دعواها هذه عنوان شامل للعنف الذي تمارسه الدولة ضد الافراد والمجموعات، وتبرير لسياسات التفوق العسكري. «اسرائيل» من جانبها، استغلت الاوضاع الامنية المحيطة بها وسيلة لجذب المعونات والعطف من الخارج، ووسيلة لابقاء الروح القتالية لدى القوات الاسرائيلية متوثبة، ولا يهم بعد ذلك ان يموت الآخرون. الحجج نفسها يعاد تسويفها من جديد، والتاريخ يعيد نفسه في اثواب متجددة، ولكنها مصنوعة من المواد نفسها، وعلى ايدي الخياطين انفسهم. لبنان يتعرض اليوم للتدمير الكامل، ليس بهدف استرجاع الاسيرين فحسب، بل من اجل القضاء على ما تبقى من مجموعات مقاومة للاحتلال، والحفاظ على حالة التفوق العسكري الاسرائيلي. الخشية ان تعيد هذه الاعمال الوحشية من قبل «اسرائيل» والمدعومة علنا من واشنطن طريق العنف وتشجع ظاهرة الارهاب برغم رفع شعار مكافحته. الساسة الاسرائيليون يعلمون، ويعلم الامريكيون ايضا، انه ليس بالامكان القضاء على المجموعات المقاومة للاحتلال مهما فعلوا.

ويمكن القول مجددا ان المشكلة متشعبة، ولكن بعدا مهما فيها هو الذي يدفع الساسة لاتخاذ قرارات الحرب، وهو بعد الشعور بالقوة، واعتبار الترسانة العسكرية هي العنصر الحاسم في المعركة. قبل خمسين عاما انطلق التحالف الفرنسي ـ البريطاني للعدوان على ارضية امتلاك قوة عسكرية ضاربة. فبريطانيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية (مع الحلفاء) منتصرة، اعتقدت ان بامكانها حسم معركة السويس ضد عبد الناصر، خصوصا مع وجود وعود امريكية في بداية الازمة بالدعم، قدمها كل من ايزنهاور ووزير خارجية، فوستر دالس. ولكن أصبح الواقع أكثر وضوحا بعد ذلك، عندما اتخذت امريكا قرارا مضادا لهما، وأجبرتهما على سحب قوات التحالف الثلاثي من منطقة القناة. الساسة البريطانيون الذين عاصروا تلك الفترة يستعيدون ذكرياتها بمرارة، ومن بينهم السيد دوغلاس هيرد، الذي كان موظفا بوزارة الخارجية خلال ازمة السويس، الذي كتب في مجلة «سبكتيتر» قائلا: لقد أصبح مستحيلا الدفاع عن القرار المتعلق بالسويس». هذا الاعتراف، وان جاء متأخرا، يجب ان يدفع الغربيين، خصوصا البريطانيين والفرنسيين منهم، لاتخاذ مواقف أكثر انسانية وأقل حماسا لل